حجاج التذييل في خطاب التنزيل مقاربة جمالية في سورة يوسف

الأستاذ المساعد الدكتور

مهند مرموص عبود

كلية الآداب / الجامعة العراقية

Muhannadabbod5@gmail.com

Hajjaj AL-Tathyeel fi Khtaab AL-Tanzeel aesthetic approach in Surat Yusuf

Asst. Prof. Muhannad Marmous Abboud (Ph.D.)
College of Arts / AL-Iraqia University

المستخلص

يكشف البحث أنماطا حجاجية متنوعة في خطاب البيان الأعلى تسهم في فنون قولية ، ومذاهب كلامية على سبيل الجاج والاقناع ، سالكة سبيل التذييل الذي تستسيغه ألسنة العوام في مخاطباتهم الدارجة يعينهم على الفهم والافهام مبدأ التعاون المشترك من خلفيات معرفية متمركزة في اضمارات مسبقة ، ومسلمات متداولة تضفي على النتاج حلاوة ، وعلى الأثر طلاوة ، وتضمن تواصلا أوسع بين المتخاطبين ؛ ليثبت للمتلقي خطاب القرآن المتجدد ، الذي يلائم الزمكانية ، ويلبي حاجاتها .

الكلمات المفتاحية: خطاب، حجاجية، القرآن

Abstract

The research reveals various argumentative patterns in the discourse of the supreme statement that contribute to verbal arts and verbal doctrines as a matter of argument and persuasion, traversing the path of appendix that is palatable by the tongues of the common people in their vernacular discourses. The result is sweetness, and the effect is sweetness, and it ensures wider communication between the interlocutors; To prove to the recipient the renewed discourse of the Qur'an, which fits the spacetime, and meets its needs.

Keywords: Discourse, Argumentative and Qur'an

تأسيس

يتسم الحجاج في خطاب البيان الأعلى بخصوصية تميزه عن أنساق خطابية أخرى ؛ فإذا كان في الشعر والنثر (موضع الكلام على الافهام فالواجب أن تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس ، فيخاطب السوقي بكلام السوقة ، والبدوي بكلام البدو ، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه ، فتذهب فائدة الكلام ، وتعدم منفعة الخطاب)[١] بيد أن القرآن الكريم شذب قتادة اللفظ ، وهذب قوام المعنى ؛ فهو خطاب لكل زمان ومكان ، بالوقت الذي يتفق فيه مع سائر الحجاج في الغاية والمقصد من فهم وإفهام ؛ لأن مدار الامر على الافهام والتفهيم [٢] ؛ وهما مشروع بلاغي لا خلاف فيه ، ومفهوم اجرائي لا مناص عنه ؛ أما الافهام فلا تقوم وظائف الخطاب بدونه فهو شرط في تعميق التواصل الناجح بين المنتج والمتلقي[٣] ، وإما التفهيم فهو وظيفة حجاجية اقناعية لها سلطانها في استمالة السامعين ، وهو شرط لازم في التواصل البياني الذي يروم الاقناع [٤] ، وبما ان التذييل آلية من آليات الحجاج التي يقصد إليها المتكلم ليتحقق فيه ما قبله من الكلام، وهو أن يذيل المتكلم كلامه بجملة وتلك الجملة تخرج مخرج المثل السائر ليحقق به ما قبله[٥]، وجدت سورة يوسف خير مضمار لهذا الحد ؛ إذ لا توازيها – بحسب ما اطلعت – سورة أخرى بهذا النوع من حجاج التذييل ، ألا وهو التذييل الذي سار مسرى المثل ، فقد يقف المتأمل على أحد عشر موضعا في السورة الكريمة مما سيق بنصه مقتبسا من خطاب التنزيل ، وثمة مواضع أخرى استقت مضمونها من النص الشريف بيد أن؛ اسلوبية خطابها دارجة ، وسأقف بإذن الله على هذه المواضع بنوعيها ، كاشفا عن مقارباتها الجمالية التي تعد سببا في تداوليتها انطلاقا من البلاغة المعيارية مرورا بالنظريات الحجاجة .

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ يوسف: ٨١

نسمع قوله تعالى (صبر جميل) مجتزأ من نصه حالما يمر أحد أطراف الحوار برزء أو ضنك ، ظاهر هذا النص أنه تذييل لحوار يطول فيه بسط الألم ، ليكون دليلا على نهايته ، عطفا على نهاية ألم سيدنا يعقوب عليه السلام الذي رد الله بصره وولده يوسف عليه السلام ؛ لذا نستطيع القول أن أحد أسباب سيرورة النص ، هو التفاؤل والتيمن .

وليس هذا فحسب ، لأنك إذا أرجعت النص إلى سياقه ستجد من المقاربات الجمالية ما تسهم في تصديره ، وكثرة استعماله .

أولا : منطلقات حجاجية : لتحقيق الاقتناع يستخدم المتكلم في سياق حجاجه مقدمات يبني عليها استدلاله ومن أهم هذه المقدمات (الوقائع)[٦]التي تمثل مفاهيم مشتركة بين جمع من الناس ، ولا شك أن الصحراء والذئب وقائع منطقية ومستساغة تصلح لتكون منطلقات حجاجية ، يبني عليها أخوة يوسف مؤامرتهم

ثانيا : المسار الحجاجي : في قولهم (على قميصه) دليل كذبهم ؛ عبر عنه القرآن الكريم، فالدم الذي يخرج من الجسد المجروح يكون من الداخل الى الخارج ، ولو كان قميص يوسف كذلك لعبر عنه البيان الاعلى بحرف الجر (في أو ب) وهو الانسب لغويا أما حرف الجر(على) دليل انهم وضعوا الدم من الخارج ؛ وعليه ناسبه قول يعقوب عليه السلام (والله المستعان على ما تصفون) كما ناسب بداية

الاية الكريمة(دَمٍ كَذِبٍ ذى كذب. أو وصف بالمصدر مبالغة، كأنه نفس الكذب وعينه، كما يقال للكذاب: هو الكذب بعينه)[٧]

.ولا يخلو النص من مفارقة أسلوبية تفضي إلى الماحة تربوية متمثلة بجمع النقيضين ؛ فكيف يكون الصبر جميل ؟

يرى بعضهم بونا بين الصبر والصبر الجميل ؛ فالثاني يكون بلا شكوى للبشر ودليله (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله) [٨]

وأخرى جمالية متمثلة ب(مراعاة النظير)بين المقولات والنتائج ، وهو المناسبة بين طرفي الكلام ،أو أن يختم الكلام بما يناسب أوله[٩] ، فقوله(بدم كذب) بالمصدر يناظره قوله (صبر جميل)كذلك بالمصدر .

ومثلها الملائمة والتوفيق [١٠]بين الصبر والجمال ؛ ومثل هذه المواقف تكون صعبة وتتطلب الشفقة؛ لأن مَنْ يمر بها يحتار بين أمر يتطلب القسوة وموقف يتطلب الرحمة؛ وكيف يجمع إنسان بين الأمرين[١١] ، ففي الحاق الجمال بالصبر تعبير عن موقف سيدنا يعقوب بين الشفقة على أولاده والعقاب لأنهم جناة .

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ يوسف: ٢٨

من الحجج المنطقية التي يذيل بها وصف مكيدة محكمة للنساء (إن كيدهن عظيم) عن بعض العلماء إني أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان لأن الله تعالى قال إِنَّ كيد الشيطان كان ضعيفا وقال لهن إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ[١٢] ، (ولأن الشيطان يوسوس مُسارقةً وهن يواجِهْن به الرجال)[١٣]

، وقولي حجاج منطقي ؛ لأنه يعتمد في قوته الاقناعية على قانون التناقض وعدم الاتفاق [١٤] ؛ والقصد منه وجود قضيتين احداهما تنفي الاخرى :

القضية الأولى : (ان كان قميصه قد من قبل فصدقت)

القضية الثانية : (ان كان قميصه قد من دبر فكذبت)

عرضهما في سياق متصل يسبب تبني إحداهما وطرح الأخرى ؛ إذ عدم الاتفاق بين القضيتين مجاله حجاجي صرف [١٥] يثبت براءة يوسف عليه السلام

التكييف الحجاجي :

يقوم التكييف الحجاجي على استحضار المعطيات واستعمال النعوت والصفات ، كما جاء في النص الكريم (إن كيدكن عظيم) والقصد من ذلك ترسيخ الصفة للتنبيه على أن ذلك خُلُق لهن عريق ... (الطويل)

ولا تحسَبا هنداً لها الغدرُ وحدها ... سجيةُ نفسٍ كلُّ غانيةٍ هندُ [١٦]...

وفضلا عن ذلك فإن اثارة الحدث حضوريا في ذهن المتلقي قد يستعين بالألفاظ العامة بدل الخاصة [١٧] (وتعميم الخطاب للتنبيه على ان ذلك خلق لهن عريق)[١٨])[١٨] أي : مِنْ كَيْدِكُنَّ الْمَعْهُودِ مِنْكُنَّ مَعْشَرَ النِّسَاءِ. فَهُوَ لَمْ يَخُصَّ الْكَيْدَ بِزَوْجِهِ فَيُقَالُ: إِنَّهُ أَمْرٌ شَاذٌّ مِنْهَا يَجِبُ التَّرَوِّي فِي تَحْقِيقِهِ بِأَكْثَرِ مِمَّا شَهِدَ بِهِ أَحَدُ أَهْلِهَا، وَهُوَ لَا يُتَّهَمُ فِي التَّحَامُلِ عَلَيْهَا وَظُلْمِهَا، بَلْ هُوَ سُنَّةٌ عَامَّةٌ فِيهِنَّ فِي التَّقَصِّي مِنْ خَطِيئَاتِهِنَّ، فَقَدْ أَثْبَتَ خَطِيئَتَهَا مُسْتَدِلًّا عَلَيْهَا بِالسُّنَّةِ الْعَامَّةِ لَهُنَّ فِي أَمْثَالِهَا (إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) لَا قِبَلَ لِلرِّجَالِ بِهِ، وَلَا يَفْطِنُونَ لِحِيَلِكُنَّ فِي دَقَائِقِهِ.

قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: وَلِرَبَّاتِ الْقُصُورِ مِنْهُنَّ الْقَدَحُ الْمُعَلَّى مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُنَّ أَكْثَرُ تَفَرُّغًا لَهُ مِنْ غَيْرِهِنَّ، مَعَ كَثْرَةِ اخْتِلَافِ الْكَيَّادَاتِ إِلَيْهِنَّ[١٩]

وَهَذَا الْأُسْلُوبُ مِنَ الْخِطَابِ يُسَمَّى بِالْإِقْبَالِ، وَقَدْ يُسَمَّى بِالِالْتِفَاتِ بِالْمَعْنَى اللُّغَوِيِّ عِنْدَ الِالْتِفَاتِ الْبَلَاغِيِّ، وَهُوَ عَزِيزٌ فِي الْكَلَامِ الْبَلِيغِ. وَمِنْهُ قَوْلُ الْجَرْمِيِّ مِنْ طَيٍّ مِنْ شُعَرَاءِ الْحَمَاسَةِ:

إِخَالُكَ مُوعِدِي بِبُنِّيٍّ جُفَيْفٍ ... وَهَالَةَ إِنَّنِي أَنْهَاكِ هَالَا

قَالَ الْمَرْزُوقِيُّ فِي «شَرْحِ الْحَمَاسَةِ» : وَالْعَرَبُ تَجْمَعُ فِي الْخِطَابِ وَالْإِخْبَارِ بَيْنَ عِدَّةٍ ثُمَّ تُقْبِلُ أَوْ تَلْتَفِتُ مِنْ بَيْنِهِمْ إِلَى وَاحِدٍ لِكَوْنِهِ أَكْبَرَهُمْ أَوْ أَحْسَنَهُمْ سَمَاعًا وأخصّهم بِالْحَال.(٢٠)

تقنية الالحاح والتركيز الحجاجي :

لرفع درجة حضور المعطى في ذهن المخاطب توخيا للتأثير عليه ، لا بد من عرض المشهد المتضمن (زمان ومكان وأحداث) على تقنية الالحاح والتركيز (٢١)

المشهد الأول : (استبقا الباب) يدل على سرعة المشهد نزع الخافض

فأوصل الفعل إلى المفعول بدون «إلى» ، دليلاً على أن كلا منهما بذل أقصى جهده في السبق، فلحقته عند الباب الأقصى مع أنه كان قد سبقها بقوة الرجولية وقوة الداعية إلى الفرار إلى الله (٢٢) هذا للهرب منها، وهذه لمنعه،

المشهد الثاني :وقدت قميصه من دبر وهذا المشهد ربما يبرر قوله (من الخاطئين) وليس من الخاطئات وجل من وجه الخطاب يراه من باب التغليب ، والذي أراه أن صفة الدهم والضراوة في التعبير عن الشهوة ، لا يمكن أن تناسب النساء بأي شكل من الاشكال وعليه جاء الخطاب (الخاطئين) بالتذكير ليناسب المشهد .أن هذه القصة بتفاصيلها ما ان تذكر (إن كيدكن عظيم) حتى تعرض تلقائيا في

ذاكرة المتلقي ،مكتملة الاركان من زمان ومكان وأحداث ، برغم أنها مشاهد متتالية وسريعة .

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَاوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ يوسف: ١٥

جارية في مفاد اظهار وجه الحق بعد صراع مع وجوه الباطل (الآن حصحص الحق) ولا تساق في مطلع الحجاج ؛ بل تسبقها مقدمات وبراهين تدل على صواب ما ذهب إليه قائلها ضمن ما يسمى ب(الآلية التداولية الحجاجية):

لقد بدأ الملك بفعل انجازي ؛ وهو الاستفهام (ما خطبكن) ؟ وقوته الانجازية تكمن في إرادة الانكار والتهكم ، والجمع بقوله (راودتن) مع علمه أن التي راودت هي واحدة ؛ وهي امرأة

والقصد من ذلك أن ينتزع الاجابة من النسوة ، فجمع الملك النسوة وامرأة العزيز معهن، وقال لهن: ما خَطْبُكُنَّ ... الآية، أي: أي شيء كانت قصتكن؟ فهو استدعاء منه أن يعلمنه القصة فجاوب النساء بجواب جيد، تظهر منه براءة أنفسهن جملة وأعطين يوسف بعض براءة، وذلك أن الملك لما قرر لهن أنهن راودنه قلن- جوابا عن ذلك- حاشَ لِلَّهِ وقد يحتمل- على بعد- أن يكون قولهن حاشَ لِلَّهِ في جهة يوسف عليه السلام،[٢٣]وهذه طريقة حجاجية معلومة تسمى (الخفض) مفادها : أن يعمد المتكلم إلى سلم حجاجي يحوي مجموعة من المقدمات التي تتراصف في سبيل نتيجة واحدة [٢٤] :

مقولة ١ : (قلن حاشا لله)

مقولة ٢ : (ما علمنا عليه من سوء)

مقولة ٣ : (الآن حصحص الحق)

المقولات المذكورة متكاملة ومتسلسلة لتؤدي إلى نتيجة واحدة فيها براءة يوسف عليه السلام

(وإنه لمن الصادقين) . وعليه فالحجاج سلك اسلوبا (اقتضائيا) [٢٥] يقتضي أن النسوة ارتكبن ذنبا ، مع أن المعني في الخطاب امرأة العزيز دل على ذلك مقدمتين لمتلقي واحد

المقدمة الكبرى (الآن حصحص الحق) بعد اعتراف النسوة وتبرئة يوسف عليه السلام .

المقدمة الصغرى (أنا راودته عن نفسه) تؤدى الى نتيجة يطلبها الملك من الاضمارات المسبقة (إنه لمن الصالحين) .

ومن أسباب التذييل في (حصحص) أنها من الألفاظ الموحية بالمعنى : أي أنها تصنع صورة شاخصة بمفردها دون الحاجة الى الاسناد ، وهذا ضرب من تناسق التصوير ، والذي يزيد من قيمة هذا التصوير ، أنه قائم بذاته بلا متممات ، معتمد على جرسه الذي يلقيه في الاذن [٢٦] من تكرار محمود لحرفين في كلمة واحدة ، و تارة بظله الذي يلقيه في الخيال

حيث يصور لك ظهور بعد غياب لوجه الحقيقة قال الزجاج: اشتقاقه في اللغة من الحصة أي: بانت حصة الحق وجهته من حصة الباطل ومن جهته[٢٧]

قَالَ الشَّاعِر: (الطويل)

(أَلا مبلغ عني خداشا بِأَنَّهُ ... كذوب إِذا مَا حصحص الْحق ظَالِم) [٢٨]

لقد انمازت الصورة المفردة بمقابلات دقيقة أسهمت في تعظيم الصورة الفنية ، وتسببت في سيرورتها ، وهي على نحو مما هو آت :

(خطبكن) والخطب يرد في القران الكريم للأمر العظيم

(فما خطبكم ايها المرسلون)

الملائكة طمأنتْ إبراهيم عليه السلام؛ فهي في مهمة لعقاب قوم مجرمين.

وموسى عليه السلام حين عاد إلى قومه، ووجد السامري قد صنع لهم عِجْلاً من الذهب الذي أخذوه من قوم فرعون نجده يقول للسامري: (قَالَ فَمَا خَطْبُكَ ياسامري)

وقَوْل الملك هنا في الآية التي نحن بصدد ها

{قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ} .

يدلُّ على أنه قد سمع الحكاية بتفاصيلها فاهتزَّ لها؛ واعتبرها خَطْباً؛ مما يوضح لنا أن القيم هي القيم في كل زمان أو مكان.

وبدأ النسوة الكلام، فقُلْنَ:

{حَاشَ للَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سواء}.

ولم يذكُرْنَ مسألة مُرَاودتهِنَّ له، وكان الأمر المهم هو إبراء ساحة يوسف عند المَلِك.

وقولهن: {حَاشَ للَّهِ ... أي: نُنزِّه يوسف عن هذا، وتنزيهُنَا ليوسف أمْرٌ من الله.[٢٩]

وكذلك (المراودة) وهي الالحاح في الطلب ، ناسب هذا السياق أن نجد (لفظة توحي بالمعنى وتصنع صورة بنفسها وهي : (حصحص) .

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ ﴾ يوسف: ٣٥

قد لا تجد ما يشبه هذه الآية في البيان الاعلى ، من جهة حجاج التذييل ؛ فهي عبارة عن أربعة مقاطع ، كل مقطع منها سائر في التخاطب اليومي على حدة :

١- وما أبرئ نفسي (للتواضع واحتمالية ورود التقصير)

٢- إن النفس لأمارة بالسوء (للتشكيك وتبرير الخطأ)

٣- إلا ما رحم ربي (للندرة وتصدير القلة)

٤- إن ربي غفور رحيم (سيأتي الكلام عنها كيف وجهت هذه العبارة الخطاب القرآني)

والثلاثة الأولى جارية مجرى المثل ، والرابعة ليس كذلك ، لعدم استغنائه عما قبله ، وعدم استقلاله بإفادة المعنى [٣٠]

ولست بخائض بخلاف المفسرين : هل هذه العبارات على لسان يوسف عليه الصلاة والسلام ، أم على لسان امرأة العزيز ؟ لأني لست بصدده ، إنما بصدد الحجج وطرائق تشكيلها وهي على نحو مما سأذكر :

١- العلاقات التبادلية : وتقوم على معالجة وضعيتين إحداهما بسبيل من الأخرى معالجة واحدة ، وهو دليل على أنهما متماثلان بطريقة غير مباشرة : فقوله

تعالى (وما أبرئ نفسي ... وقوله تعلى (إن النفس لأمارة بالسوء) وعليه فهي حجج عكسية

٢- حجج التعدية : يعمد فيها توظيف العنصر الثالث انتاج علاقات لتأكيد صدق العنصرين السابقين ، فقوله تعالى (إلا ما رحم ربي) وصيغة التقليل الواردة في العنصر الثالث توثق صواب النفي الأمارة بالسوء التي يبدر منها الزلل والخطأ والتقصير

٣- حجاج الادماج : ويقوم على قاعدتين :

أ - ادماج الجزء في الكل أي ما ينطبق على الجزء ينطبق على الكل (ما أبرئ نفسي) نفس معينة أو خاصة (الجزء)، (أن النفس لأمارة بالسوء) جنس النفس البشرية (الكل) وهو أسلوب حجاجي يسهم في التخفيف من وطأة الحكم على الجاني حينما يثبت أنه ليس الوحيد في هذا العالم الذي وسوست له نفسه ، وفيه دليل على أن القول لامرأة العزيز .

ب- تقسيم الكل إلى أجزاء : ليتسنى للمحاجج تحميل الاجزاء الشحنة الاقناعية (إلا ما رحم ربي) فالقليل النادر وهو جزء من الغالب الاعم من النفس البشرية لا يخطئ .

ثم انطر إلى (ما) وهي لغير العاقل في التعبير اللغوي كيف توجه الخطاب : فالنفس البشرية يعبر عنها (بمن) لأنها لعاقل ، أما ورودها ب(ما) فربما قصد بها الملائكة ، وكأنها تقول النفس التي لا ترتكب المعصية هي نفس ملائكية .وقد اشار ابن الأنباري:حين قال: هذا استثناء منقطع[٣١]، ناهيك عن البناء الحجاجي ونوع الأخبار المتراكمة في النص القرآني حيث كانت البداية مع الخبر الابتدائي المنفي الخالي من المؤكدات (وما أبرئ نفسي) وهي محاولة لتأكيد الخبر في نفس

المخاطب من دون توكيد لمصادفته ذهنا خاليا [٣٢]، واللافت في البناء هو أن يعقبه خبر انكاري مثبت (إن النفس لأمارة بالسوء) مؤكد ب(إن و اللام المتزحلقة) ؛ لأن المخاطب أنكر على صاحب الخبر خبره فاحتاج المخبر الى تكاثر عناصر التوكيد لتصاعد أحوال الانكار[٣٣] ، وهذا دليل آخر على ان القول ليس لسيدنا يوسف ؛ لأنه في موضع ترحيب لا انكار .

والسياق يعين على ذلك فالضمائر كلها في نسق واحد يدل عليه. وهو قول النسوة ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ وقول امرأة العزيز أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ هذه خمسة ضمائر بين بارز ومستتر[٣٤].

قيل:(هذا من تمام الاعتذار، قرنت الاعتذار بالاعتراف، فقالت ذلك أي قولي هذا وإقراري ببراءته: ليعلم أني لم أخنه بالكذب عليه في غيبته، وإن خنته في وجهه في أول الأمر، فالآن يعلم أني لم أخنه في غيبته، ثم اعتذرت عن نفسها بقولها وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي ثم ذكرت السبب الذي لأجله لم تبرئ نفسها، وهي أن النفس أمارة بالسوء.

فتأمل ما أعجب أمر هذه المرأة، أقرت بالحق واعتذرت عن محبوبها، ثم اعتذرت عن نفسها، ثم ذكرت السبب الحامل لها على ما فعلت، ثم ختمت ذلك بالطمع في مغفرة الله ورحمته، وأنه إن لم يرحم عبده وإلا فهو عرضة للشر)[٣٥].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾ يوسف: ٦٤

في قولك (الله خير حافظا) عندما يحيق بك المكر ، ويداهمك الخطر تستفرغ طاقتك ، وتستنفذ جهدك آخذا بالأسباب وتاركا أصل الحماية على رب الأسباب فهو خير حافظا ، لما تشعر هذه العبارة قائلها بالارتياح والطمأنينة وللكشف عن قابليتها الحجاجية في التذييل يمكننا أن ننظر إلى النص من خلال سياقه التقابلي ؛ فهي من العبارات التي (تستفاد من النص لزوما ويقتضيها النص اقتضاء) [٣٦] فهي إما :

١- سؤال ذكر جوابه دون أن يذكر فقوله (هل ءامنكم عليه) اجابتها (لا آمنكم عليه) والدليل التشبيه التمثيلي بقوله (كما أمنتكم على أخيه) فهم لم يصونوا الأمانة من قبل وقد أكد هذا المفاد ابو حيان بقوله (هَلْ آمَنُكُمْ، هَذَا تَوْقِيفٌ وَتَقْرِيرٌ. وَتَأَلُّمٌ مِنْ فِرَاقِهِ بِنْيَامِينَ، وَلَمْ يُصَرِّحْ بِمَنْعِهِ مِنْ حَمْلِهِ لَمَّا رَأَى فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصْلَحَةِ. وَشَبَّهَ هَذَا الِائْتِمَانَ فِي ابْنِهِ هَذَا بِائْتِمَانِهِ إِيَّاهُمْ فِي حَقِّ يُوسُفَ. قُلْتُمْ فِيهِ: وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ، كَمَا قُلْتُمْ فِي هَذَا، فَأَخَافُ أَنْ تَكِيدُوا لَهُ كَمَا كِدْتُمْ لِذَلِكَ، لَكِنَّ يَعْقُوبَ لَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ كَمَا خَافَ عَلَى يُوسُفَ، وَاسْتَسْلَمَ لِلَّهِ وَقَالَ: فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا[٣٧].

٢- اعتراض رد النص عليه دون أن يذكر في اللفظ لكنه ملاحظ ذهنا : فقوله (الله خير حافظا ردا على قوله (إنا له لحافظون) فحفظهم خوف وحفظ الله أمن .وهي من التتمات التي يستدعيها اللزوم العقلي وقد سكت النص عنها [٣٨] واللَّه تعالى متَّصِفٌ بأنَّ حِفْظَه يزيد على حِفْظِ غيرِه كقولك: هو أفضل عالم.[٣٩] وَجُمْلَةُ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ فَأَرْسِلْ. وَأَكَّدُوا حِفْظَهُ بِالْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى الثَّبَاتِ وَبِحَرْفِ التَّوْكِيدِ[٤٠]..

وَجَوَابُ أَبِيهِمْ كَلَامٌ مُوَجَّهٌ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: إِنِّي آمَنُكُمْ عَلَيْهِ كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ، وَأَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ مَاذَا أَفَادَ ائْتِمَانُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ حَتَّى آمَنَكُمْ عَلَيْهِ.

٣- محذوفات دل عليها التوازن : في قوله (وهو أرحم الراحمين)

فأرجو أن يرحمنى بحفظه، ولا يبتلينى بفقده، كما ابتلاني من قبل يفقد أخيه يوسف، فرحمته واسعة، وفضله عظيم[٤١].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ يوسف: ٢٩

قوله تعالى (لا تثريب عليكم) يذكرها صاحب العفو المقتدر على عقوبة المتجاوزين عطفا على قصة يوسف عليه الصلاة والسلام وعفوه عند المقدرة ، وتيمنا بسيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام عندما قال لقريش (لا تثريب عليكم) وثمة تناظر بين الشاهدين : فأخوة يوسف كادوا به كما كادت قريش برسولنا الكريم ، ولما تمكنا عليهما الصلاة والسلام سامحا قومهما، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بعضادتي باب الكعبة يوم الفتح فقال لقريش ما تروننى فاعلاً بكم قالوا نظن خيراً أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت فقال أقول ما قال أخي يوسف لا تثريب عليكم اليوم[٤٢].

والذي يبدو لي أن هذا التناظر أسهم في سيرورة هذا النص ووقد لوح ابن عاشور إلى هذا المعنى بقوله (الظَّاهِرُ أَنَّ مُنْتَهَى الْجُمْلَةِ هُوَ قَوْلُهُ: عَلَيْكُمُ، لِأَنَّ مِثْلَ هَذَا الْقَوْلِ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَى الْمَثَلِ فَيُبْنَى عَلَى الِاخْتِصَارِ فَيَكْتَفِي بِ لَا تَثْرِيبَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ: لَا بَاسَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: لَا وَزَرَ [الْقِيَامَة: ١١] .

وَزِيَادَةُ عَلَيْكُمُ لِلتَّأْكِيدِ مِثْلَ زِيَادَةِ لَكَ بَعْدَ (سَقْيًا وَرَعْيًا) [٤٣]

لقد اختصر المجاز اللغوي كل الحكاية وجعلها اضمارات مسبقة في ذهن المخاطب لا تحتاج إلى تكرار ؛ إنما يكتفي قائلها ب (لا تثريب عليكم)

والاصل فيها تجريد الذي يقع عليه اللوم من ماء وجهه كما تجرد الدابة من شحمها للهزل ، فهي استعارة مكنية مرشحة يسهل سوقها ويتبادر للذهن مفادها كما ذكر المفسرون في أصل الاستعارة (لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ لا تأنيب عليكم تفعيل من الثرب وهو الشحم الذي يغشى الكرش للإزالة كالتجليد، فاستعير للتقريع الذي يمزق العرض ويذهب ماء الوجه)[٤٤] كَمَا أَنَّ التَّجْلِيدَ وَالتَّقْرِيعَ إِزَالَةُ الْجِلْدِ وَالْقَرَعِ، لِأَنَّهُ إِذَا ذَهَبَ كَانَ ذَلِكَ غَايَةَ الْهُزَالِ، فَضَرَبَ مَثَلًا لِلتَّقْرِيعِ الَّذِي يُمَزِّقُ الْأَعْرَاضَ، وَيُذْهِبُ بَهَاءَ الْوَجْهِ. الْفَنَدُ: الْفَسَادُ[٤٥]

لعل من أبرز أشكال التماسك النصي ، الترابط الذي أحدثه التناظر[٤٦] ؛ فالمطلع عفو (لا تثريب عليكم)والمقطع دعاء لهم بالمغفرة (يغفر الله لكم)

والتتمة اثبات صفات الكمال المتمثلة بالرحمة (وهو أرحم الراحمين) .

خاتمة

إن التوجيه الجمالي لتراكيب البيان الأعلى يسوره الحذر ، إذ ليس للميول فيه متسع ، ولا للأهواء فيه مرتع ؛ فأي سماء تضل وأي أرض تقل من يضرب صفحا عن الحقيقة ويجانب الصواب ؛ لذلك كان العمل معتمد على الانطلاق من مرجعيات معرفية ، والاجتهاد ضمن هذه الآلية ، الذي حدا بي أن أضع نتائج لهذ الجهد :

١- من مقاصد اللغة أنها تضمن تواصلا أمثل بين المتخاطبين واذا كان التذييل سبيل للحجاج ، فإن القرآن الكريم قدم هذا الفن بأشكال مختلفة وأنماط متعددة ؛ ليتسن لكل قابلية تريد الحوار وتدافع عن قناعاتها .

٢- يعد حجاج التذييل في خطاب التنزيل عاملا مشتركا بين نظريتين هما الأشهر في العصر الحديث وهما : الحجاج اللغوي والحجاج البياني إذ يتشكل فيه الخطاب بين البلاغة واللسانيات .

٣- معلوم عند أهل الصنعة أن التذييل في الحجاج يكون تاليا ومتمما ، وهذا لا خلاف فيه ، أما في خطاب التنزيل فقد قدم صورا مغايرة للمعتاد كشكل من أشكال تجدد الخطاب و ملاءمة روح العصر ، ومثال ذلك في آية ٩٤ تساوقت بمفاصل أربعة من البداية والمنتصف والنهاية كل مفصل كان تذييلا يؤدي دورا حجاجيا الهوامش

---

(١) كتاب الصناعتين ، أبو هلال العسكري ص ٢١

(٢) ينظر: البيان والتبيين ، الجاحظ ج١ ص١١

(٣) التداولية في الفكر النقدي ، د كاظم العزاوي ص١١٩

(٤) بلاغة الاقناع في المناظرة ، د عبد اللطيف عادل ص٦٤

(٥) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر ، ابن أي الاصبع ج ١ ص٣٨٧

(٦) بلاغة الحجاج ٨٧

(٧)

(٨) الكشاف ، الزمخشري ص٢ ج ٤٥١

(٩) ينظر : جواهر البلاغة ، السيد أحمد الهاشمي ص ٣١٥

(١٠) ينظر : علم البديع ، عبد العزيز عتيق ص١٢٥

(١١) تفسير الشعراوي ، محمد متولي الشعراوي ج١١ ص ٦٨٩٢

(١٢) ينظر : مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، النسفي ص٢ ج ١٠٦

(١٣) ارشاد العقل السليم ، أبو السعود ص٤ ج ٢٧٠
(١٤) ينظر : الحجاج وتوجيه الخطاب ، د . باسم خيري ٧٢
(١٥) ينظر : السابق ص ٧٢
(١٦) ينظر :ارشاد العقل السليم : ج ٤ ص ٢٧٠
(١٧) ينظر : بلاغة الاقناع في المنظرة ص٩٠
(١٨) روح البيان ، اسماعيل الحنفي الخلوتي ج ٤ ص ٢٤٢
(١٩) ينظر : تفسير المنار ، محمد رشيد رضا ج١٢ ص٢٣٨
(٢٠) ينظر : التحرير والتنوير ، ابن عاشور ج ١٢ ص٢٥٩
(٢١) ينظر : بلاغة الاقناع في المناظرة ص ٩٠
(٢٢) ينظر : نظم الدرر ، البقاعي ج١٠ ص٦٧
(٢٣) ينظر : المحرر الوجيز ، ابن عطية ج ٣ ص ٢٥٣
(٢٤) ينظر : الحجاج وتوجيه الخطاب ص١٦٨
(٢٥) ينظر : التداولية في الفكر النقدي ص ٢٧٨
(٢٦) ينظر : التصوير الفني في القران ، سيد قطب ص٩١
ينظر :(٢٧) بحر العلوم ، السمرقندي ج٢ ص ١٩٧
(٢٨) ينظر : تفسير القرآن ، أبو المظفر السمعاني ج ٣ ص٣٨
(٢٩) ينظر : تفسير الخواطر ، محمد متولي الشعراوي ج١١ ص ٦٩٨٩
(٣٠) ينظر : جواهر البلاغة السيد أحمد الهاشمي ص ٢٠١
(٣١). ينظر : زاد المسير ج٢ ص٤٤٩
(٣٢) ينظر :علم المعاني عبد الحفيظ حسن ص٣٥
(٣٣)ينظر : السابق ٣٨
(٣٤) التفسير القيم ابن القيم ج١ ص ٣٣٠
(٣٥) التفسير القيم ج١ ص٣٣١
(٣٦) قواعد التدبر الأمثل عبد الرحمن حبنكة الميداني ص ٢٤٣
(٣٧) ينظر : البحر المحيط ج٦ ص ٢٩٥
(٣٨) ينظر : قواعد التدبر الأمثل ص٢٤٣
(٣٩) ينظر : الدر المصون ج٦ ص ٥١٨
(٤٠) ينظر :التحرير والتنوير ج١٣ ص١٦

(٤١) تفسير المراغي أحمد المراغي ج١٣ ص ١٣
(٤٢) التنزيل وحقائق التأويل النسفي ج٢ ص ١٣٢
(٤٣) التحرير والتنوير ج١٣ ص ٥٠
(٤٤) أنوار التزيل وأسرار التأويل البيضاوي ج٣ ص ١٧٥
(٤٥) البحر المحيط ج٦ ص ٣١٧
(٤٦) التماسك والتناسب محمد أبو عامود ٣٧٢

روافد المسعى

القرآن الكريم

١- اعراب القرآن وبيانه ، محيي الدين درويش ، دار ابن كثير (دمشق – بيروت) ط٤ ، ١٤١٥ ه .

٢- أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ناصر الدين الشيرازي البيضاوي ، تحقيق محمد المرعشلي ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٨ ه .

٣- بحر العلوم ، أبو الليث ابراهيم السمرقندي .

٤- البحر المحيط في التفسير ، أبو حيان الأندلسي ، تحقيق صدقي محمد جميل ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٢٠ه .

٥- بلاغة الاقناع في المناظرة ، د عبد اللطيف عادل ، دار عدنان ، بغداد ، ط١ ٢٠١٣م .

٦- البيان والتبيين ، عمر بن بحر الجاحظ ، مكتبة الهلال ، بيروت ، ١٤٢٣ ه .

٧- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان اعجاز القرآن ، أبو الاصبع المصري ، تحقيق : د حنفي شرف ، القاهرة ١٣٨٣ه ، ١٩٦٣م .

٨- التحرير والتنوير ، ، محمد الطاهر بن عاشور ، دار التونسية للنشر ، تونس ،١٣٩٣ ه .

٩- التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ، أنوار دجلة ، بغداد

١٠- تفسير القرآن ، أبو المظفر منصور السمعاني ، تحقيق ياسر بن ابراهيم و غنيم بن عباس ،دار الوطن ، الرياض ، السعودية .

١١- تفسير القران الحكيم ، محمد رشيد بن علي رضا ، الهيئة المصرية العامة للكتب ، ١٩٩٠م .

١٢- تفسير القران الكريم ،محمد شمس الدين بن قيم الجوزية ، تحقيق مكتب البحوث والدراسات العربية والاسلامية ، مكتبة الهلال بيروت ،ط١ ١٤١٠ه .

١٣- تفسير المراغي ، أحمد المراغي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ط١ ، ١٩٤٦ ه .

١٤- التماسك والتناسب ، محمد أحمد أبو عامود ، دار النابغة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط١ ١٤٣٥ه – ٢٠١٤م .

١٥- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، أحمد الهاشمي ، مؤسسة الصادق ، طهران ، ط٢ ، ١٣٨٣ه .

١٦- الحجاج وتوجيه الخطاب ، د باسم خيري خضر ، دار صفاء للنشر والتوزيع ، عمان ، ط١ ١٤٤٠ ه – ٢٠١٩ م .

١٧- الخواطر ، محمد متولي الشعراوي ، مطابع أخبار اليوم ، ١٩٩٧ م .

١٨- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، السمين الحلبي ، تحقيق أحمد الخراط ، دار القلم ، دمشق .

١٩- روح البيان ، اسماعيل الحنفي الخلوتي ، دار الفكر ، بيروت .

٢٠- زاد المسير في علم التفسير ، جمال الدين الجوزي ، تحقيق عبد الرزاق المهدي ، دار الكتاب العربي بيروت ، ط١ ١٤٢٢ه .

٢١- الصناعتين ، أبو هلال العسكري ، تحقيق : علي البجاوي ومحمد أبو الفضل ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤١٩ه .

٢٢- علم البديع ، عبد العزيز عتيق ، الآفاق العربية ، القاهرة ، ٢٠٠٦ م .

٢٣- علم المعاني دراسة نظرية تطبيقية ، عبد الحفيظ حسن ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠١٠ م .

٢٤- قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل ، عبد الرحمن حبنكة الميداني ، دار القلم ، دمشق ، ط٦ ١٤٤١ ه ٢٠٢٠ م .

٢٥- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، أبو القاسم الزمخشري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٧ ه.

٢٦- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، أبو محمد بن عطية الاندلسي ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ١٤٢٢ه .
٢٧- مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، أبو البركات النسفي ، تحقيق يوسف علي بدوي ، دار الكلم الطيب ، بيروت ، ط١ ١٤١٩ ه – ١٩٩٨ م .
٢٨- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، ابراهيم البقاعي ، دار الكتاب الاسلامي ، القاهرة .